اجتهادات
المثقفُ والشارعُ فى عصرين

الفرنسيون مختلفون عن غيرهم من شعوب أوروبا، والعالم. ظهر اختلافُهم، واستمر، منذ آخر القرن 18. غيّرت ثورتهُم مفاهيم وأنماط حياة فى زمنها، وبعده. وظلوا منذ ذلك الوقت، أكثر الشعوب حيويةً, وأشدها ولعًا بسياسة الشارع. وما الاحتجاجاتُ التى بدأت منذ مطلع العام ضد مشروع، ثم قانون، تمديد سن التقاعد إلا حلقةٌ فى سلسلة تحركاتٍ شعبيةٍ لم يُحّقق معظمها أهدافه. وما يجمعُ الاحتجاجات الحالية وسابقاتها كثير. ولكن أحد أكثر ما تختلفُ فيه الآن هو غيابُ المثقفين الذين كان حضورهم مشهودًا بدرجاتٍ فى تحركاتٍ شعبيةٍ سابقة حتى آخر السبعينيات.

أخرجت ثورة 1789 مثقفين فرنسيين، وأوروبيين آخرين، من أبراجهم العاجية. وألهم حضوُرهم فى الشارع المفكر الإيطالى أنطونيو جرامشى نظرية المثقف العضوى. وجذبت هذه النظرية، بدورها، مثقفين كبارًا تأثروا بها للمشاركة فى تحركاتٍ شعبية. لم يعد حضورهُم هذا ملموسًا فى عصرنا. لا نجدُ أمثال جان بول سارتر، وميشال فوكو، وريمون آرون، وكلود موريالك، وغيرهم ممن ملأت أفكارُهم عقول شبابٍ كُثُر فى أنحاء العالم، وليس فى فرنسا فقط، فى الربع الثالث من القرن الماضى.

فما الذى حدث؟ هل يعودُ غياب مثقفى العصر الراهن إلى اختلافٍ فى تكوينهم وخياراتهم، أم فى معطيات زمنهم؟. الأرجح أن الاختلاف فى هذه وذاك. تغيرُ المعطيات يؤثر فى التكوين والخيارات، فى سياق العلاقة بين العضوى والذاتى, خاصةً حين يحدثّ فى سياق انتقالٍ من عصرٍ إلى آخر. ومن أهم ما تغير عضويًا دورُ الفكر والفلسفة والنظريات الكونية الكبرى. تراجع هذا الدورُ بمقدار ما توسع اهتمامُ العلمُ بأسئلةٍ كانت محاولةُ الإجابة عنها وظيفةً حصرية، ثم رئيسية، للفكر والفلسفة.

لم يجب العلمُ عن كل هذه الأسئلة، وقد لا يجيب. فليس ممكنًا تفسيرُ ما هو أعلى بما هو أدنى. والأعلى، هنا، ينطوى بالضرورة على مسائل تتعلقُ بما وراء هذا الكون، وما يتجاوزُ بالتالى حدود العلم. ومع ذلك، لم تسترد الفلسفةُ مكانةً فقدتها، ولم يستعد المثقفُ أدوارًا تخلى عنها، بعد أن شغلت مواقعُ التواصل الاجتماعى البشر فى عصرٍ مختلف.